الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

السّلام

الوهم الجميل

360 KNO SMART SCHOOLING
ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY

unicef

UNESCO
United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization

GenEx
Generational Education Exchange

تمكين TAMKEEN

UNIVERSITY OF VICTORIA
LONDON - UK

AMIEF
American International Education Federation

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة

رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

دعني أصطحبك لتقف في حوار بينك وبين ذاتك وأنت أمام مشهدين...

المشهد الأوّل.. يحتاج منك أنْ تعود معي عبر التاريخ لإحدى ليالي الحرب العالميّة الثانية، بينما كانت القنابل تخترق الآفاق، ترقب مشهداً لأم وطفلتها في ملجأ تحت الأرض، وتسمع سؤال الطفلة بخوف لأمّها: " متى ستنتهي الحرب؟" فتسمع صدى الإجابة من أكثر منها ومن غيرها: "قريباً، قريباً سنرى السلام"، ورغم هذه الكلمات فالأم تعلم، ومن حولها يعلمون وحتّى أنت تعلم بأنّ الحرب لربما آنذاك لم تكن لتنتهي، ولكنّها كانت كلمات تحمل شمعة وهم وأمل مزيّف لبث القدرة على الصمود...

والآن عد لعصرنا الحالي، وقف معي أمام المشهد الثاني.. في قاعة الأمم المتحدة، وخلف خطابات الدبلوماسيّة الرّنانة، انظر هناك في الأمام، لترى تمثالاً شهيراً لمسدس معقود الفوهة، وهو تمثال يسمّى ب"لا للعنف" ، حيث يعكس هذا التّمثال رؤية سائدة في عالمنا مفادها تحقيق الحلم الإنسانيّ القديم بالسلام العالمي دون عنف، وهو شمعة وهم أخرى في عالم لا تزال الحروب تنهش فيه من كلّ صوب وحدب..

في هذين المشهدين، تختزل قصة الإنسانيّة الكبرى مع السّلام، حيث السلام لا يعدّ غياباً للحرب، بل هو حاجة روحيّة عميقة، وحلم جماعي نسجته البشرية عبر آلاف السنين من المعاناة، وهو الزناد الذي أطلق تساؤلاً مؤلماً: هل السّلام حقيقة يمكن تحقيقها، أم أنّه مجرد وهم جميل نحتاجه لنواصل الحياة؟

فلا يوجد أدنى اختلاف أنّ الإنسان خلق ومعه تناقض عجيب؛ ففيه قلب يتوق إلى السكينة، وروح تبحث عن الطمأنينة، ولكنْ داخله أيضاً غرائز التنافس والصراع، وفي ذلك يقول اللّٰه تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس: 7-8)، ففي هذه الآيات إشارة عميقة إلى أنّ الإنسان يحمل في داخله إمكانية الخير والشر معاً، السّلام والحرب، البناء والهدم...

ومنذ فجر التاريخ، والإنسان يعيش هذا التناقض، بدءاً من قابيل وهابيل، أول قصّة في تاريخ البشرية بعد آدم، والتي عكست قصة صراع انتهى بالقتل،﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (المائدة: 30)، وفي الوقت ذاته تحمل الإنسانيّة داخلها نزوعاً فطرياً نحو السّلام، نحو الحياة الآمنة المستقرّة التي تتيح لها أنْ تحبّ، وتبني، وتبدع...

وإذا ما نظرنا إلى التاريخ الإنسانيّ بعين موضوعيّة محايدة، فإنّنا سنجد أنّ الصراع على القوّة والمصالح كان حتمياً في كلّ عصر، فالدّول، في غياب سلطة عليا تحكمها، تعيش في حالة من الفوضى الطبيعية حيث البقاء للأقوى، فما نسمّيه "سلاماً" بين الأمم غالباً ما يكون مجرّد "هدنة مسلحة"، ترتبط بفترة إعادة ترتيب للموازين استعداداً للصراع القادم، فالقوّة هي الفيصل النهائي في كثير من الأحيان، لا القانون الدولي وحده، وهذا التناقض ليس عيباً في الخلق، بل هو جوهر الاختبار الإنسانيّ، فالسّلام اختيار واعٍ نقوم به في كلّ لحظة، حين نكظم غيظاً، أو نعفو عن مسيء، أو نمدّ يدنا لمن يختلف معنا.

ولكنّ التاريخ يأتي ليعلّمنا درساً قاسياً، بأنّ ليس كلّ سلام هو سلام حقيقي، فقد يكون السلام أحياناً مجرد قناع يخفي وراءه ظلماً راسخاً، أو هيمنة محكمة، أو استسلاماً للقوي على حساب الضعيف....

فالتاريخ يسرد لنا قصة "السلام الروماني" الذي فرضته الإمبراطورية على أطراف العالم القديم، فقد كان سلاماً بالقوة، تُسحق فيه الشعوب وتُستعبد الأمم...

ومن ثمّ جاء "السلام البريطاني" في القرن التاسع عشر، حيث هيمنت الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس على ربع سكان العالم...

وفي العصر الحديث، شهدنا "السلام الأمريكي"بعد الحرب العالمية الثانية، والذي ما زال يشكلّ النظام العالمي حتى اليوم، وإلى جانبه يأتي "السلام الاستعماري" الذي رسمته القوى الأوروبية على أجساد الشعوب المستضعفة، ويرافق هذا السلام وذاك "اتفاقيات سلام" فرضت على شعوب محتلة تحت مسميات مختلفة، لجعل معاناتها مستمرّة تحت أشكال جديدة من القهر...

فهذه الأنواع من السلام، رغم أنها أتاحت استقراراً نسبياً في مناطق معينة، إلاّ أنّها كانت تخدم بالدرجة الأولى مصالح القوّة المهيمنة، فالسلام الحقيقي، كما يفترض أن يكون وفقاً لقيمنا الإنسانية والدينية، لا ينفصل

عن العدل، إذ يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ (النساء: 135)، فالقسط والعدل هما أساس أيّ سلام حقيقي، والسلام بلا عدالة هو مجرد "صمت قبور"، وهدوء زائف يخفي تحته براكين الغضب المكبوت والحقوق المهدورة...

وها هو ما يُسمى بـ"السلام الطويل" منذ نهاية الحرب العالمية الثانية عام 1945، أكبر مثال صارخ على هذا الوهم، فصحيح أنّنا لم نشهد حرباً عالمية ثالثة، لكنّ هذا لا يعني أنّ العالم عاش في سلام، فنحن نشاهد الكثير من الدول التي تسابق الزمن للاستعداد لحرب ثالثة قد تكون قادمة، وإنْ حصلت فحتماً سيتغيّر وجه الأرض كما عهدناها وسيتغيّر كلّ ما عليها، وهذا ليس بالمستبعد، فقد شهدت هذه الفترة مئات الحروب الأهلية والصراعات الإقليمية؛ فبدءاً من حرب فيتنام التي راح ضحيتها أكثر من مليوني شخص، إلى الحرب العراقية - الإيرانية بثمانية أعوام من الدمار، إلى حروب البلقان التي مزقت يوغوسلافيا، إلى الغزو الأمريكي للعراق وأفغانستان،إلى الحرب بين أوكرانيا وروسيا، إلى مجازر إسرائيل في فلسطين والإبادة المستمرّة في قطاع غزة، وصولاً إلى الحروب المستمرة في أغلب دول الشرق الأوسط وإفريقيا....

ففترة "السلام الطويل" هذه كانت في حقيقتها "حرباً باردة"، مواجهة بين المعسكرين الشرقي والغربي اقترب فيها العالم عدّة مرات من حافة الهاوية النووية، كما في أزمة الصواريخ الكوبية عام 1962 حين كان العالم على بعد لحظات من حرب نووية شاملة.

واليوم، يتعرّض حتّى هذا "السلام النسبي" للتهديد، فصعود الصين كقوّة عالمية منافسة للولايات المتحدة يعيد رسم خريطة التوازنات الدولية، والحرب في أوكرانيا منذ 2022 أعادت شبح الصراع المباشر بين القوى الكبرى إلى أوروبا، والمجازر التي ترتكب في غزّة فتحت أنظار العالم بأسره على معنى الطغيان والإبادة، فكلّ هذا يكشف هشاشة "السّلام" الذي نعيشه...

فالطّفل الفلسطينيّ الذي ينام تحت سقف مهدّد بالقصف، والأسر التي تفترش الخيام في مخيمات اللجوء، والأقليّات المضطهدة في كلّ بقاع الأرض، كلّهم يعيشون في "سلام" نظريّ، بينما حقيقتهم اليوميّة مليئة بالخوف والحرمان، فهذا ليس السّلام الذي نحتاجه، بل هو وهم مرّ يزيد الجراح عمقاً...

وقد يقول قائل: إذا كان السلام المطلق مستحيلاً، فلماذا نستمرّ في الحلم به؟ لماذا لا نستسلم للواقع القاسي ونعترف بأنّ الصراع هو قانون الحياة الأبدي؟

والجواب يكمن في فهم عميق لطبيعة الإنسان، فنحن لا نستطيع الحياة بلا أمل، والأمل في السلام هو الذي يدفع الأمّ لتحمّل مشقّة تربية أبنائها رغم قسوة الحياة، وهو الذي يجعل المزارع يبذر بذوره في أرض مزّقتها الحروب، هو الذي يدفع الطبيب للعمل في مستشفى ميداني رغم القصف المستمر، فالوهم الجميل ليس خداعاً للنفس، بل هو طاقة حياة، وهو النور الذي نحتاجه لنواصل السير في نفق التاريخ المظلم، ففي وقله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح: 5-6) تأكيد لوعد إلهي هو جوهر الأمل الإنسانيّ بأنّه مهما اشتدّ الظلام، فالفجر قادم حتماً...

فهذا الحلم بالسلام من جهة أخرى يؤدي وظيفة نفسيّة واجتماعية حيوية في حياتنا، فهو ما يمنحنا معنى لمعاناتنا، ويجعلنا نرى أنّ آلامنا ليست عبثاً، إنّما هي مخاض لولادة عالم أفضل، فالجندي الذي يقاتل "من أجل السلام" يجد معنى في تضحيته، والناشط الحقوقي الذي يناضل ضدّ الظلم يستمدّ قوّته من إيمانه بأنّ السلام والعدل ممكنان...

ناهيك عن أنّ السلام الحقيقي لا يأتي بالتمني والأحلام، إنّما يُبنى بالجهد اليومي، بالخيارات الصغيرة التي نتّخذها في حياتنا، فهو ليس مشروعاً عظيماً تنجزه الحكومات والمنظمات الدولية فقط، بل هو مسؤولية فرديّة يتحمّلها كلّ واحد منّا، مسؤوليّة تحويل الوهم إلى فعل، مسؤوية صناعة السلام الإنسانيّ المنشود، فإذا كان السّلام الخارجي صعب المنال، فإنّ السّلام الداخليّ هو المعركة الأصعب والأهمّ، فحتّى نبني عالماً سلمياً وجب أنْ نحقّق السلام في قلوبنا أولاً..

وهنا تبدأ رحلة السّلام من التربية، من تعليم الطفل أنّ الآخر ليس عدواً بالضرورة، وأنّ الاختلاف ثراء وليس تهديداً، ففي بيوتنا ومدارسنا، نزرع بذور السلام أو الحرب، فحين نربّي أطفالنا على التسامح والرحمة، نبني أساساً لمجتمع سلميّ، وحين نعلّمهم الكراهية والعنصرية، نزرع بذور الصراع القادم، ففي حديث أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ: "ليس الشديد بالصُّرَعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب" تأكيد لفلسفة عميقة عن السلام مفادها أنّ القوّة الحقيقيّة ليست في القدرة على الإيذاء، إنّما تكمن في القدرة على ضبط النفس، وعلى اختيار السلام حتّى عندما نملك القدرة على الحرب....

والتربية على السلام تعني أيضاً تعليم الحوار بدل الصراخ، والإصغاء بدل الاتّهام، والتفاهم بدل التصادم، ففي أسرة واحدة، حين يتعلّم الزوجان كيف يحلاّن خلافاتهما بالحوار الهادئ، يصنعان نموذجاً لأطفالهما عن كيفية إدارة الصراع سلمياً، وحين تعلّم المدرسة الطالب كيف يحترم رأي زميله المختلف، تبني لبنة في صرح السلام الاجتماعيّ، فالسّلام يبدأ من القلب، بمسامحة من أساء إلينا، وبالكفّ عن الحقد والضغينة، وباختيار الكلمة الطيبة بدل الجارحة، فهذا هو ما يصنع السلام في داخلنا ومع الآخر،﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: 34).

ويأتي دور المجتمع ليكمل دور الفرد والأسرة في صناعة السلام، باحترامه للتنوع، ورفض التمييز، وحماية الضعيف، وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه، والوقوف ضدّ الظلم الواقع على الآخر، حتى لو كان مختلفاً عنّا، فبذلك نبني مجتمعات السّلام، ونبني جسراً للسلام الاجتماعيّ...

ومن ثمّ يأتي دور الإنسانيّة لتحقّق السّلام العلاميّ وتطالب به، و هذا يقتضي منها تجاوز الحدود الضيقة للقبيلة والعرق والدين، والإيمان بوحدة الأسرة الإنسانيّة، تطبيقاً لقول اللّه تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات: 13)، فالمطلوب التّعارف لا التّصارع، لكونه هو الغاية من هذا التنوّع الإنساني..

وهنا يسترعي انتباهنا محاولة الإنسانيّة لنشر السّلام من خلال جائزة تعكس العمق المعنويّ لها، فتأتي جائزة نوبل للسّلام لتُعدّ أسمى تكريم يُمنح لمن يسهم في نشر السّلام بين الشعوب، فيتمّ ترشيح من سعى لحلّ قضايا صراع وإيقاف الحروب بينما كان العالم صامتاً، فيكون التكريم لهم بمثابة تذكير بأنّ السّلام لا يُبنى بالخطابات وحدها، إنّما بالنضال الصامت والمستمرّ ضدّ آلة الحرب، وبمثابة تأكيد على أنّ سياسات هؤلاء المرشّحين وأعمالهم تنسجم مع النوايا والمباديء المنصوص عليها في وصية نوبل للسّلام من تعاون دوليّ وأخوّة بين الشعوب ونزع للسّلاح فلذلك استحقّوا التكريم والجائزة...

ورغم ما تحمله هذه الجائزة من معنى عميق فهي تحمل جدليّة أخرى، إذ إنّها تُمنح أحياناً لمن لا يجسّد السّلام بقدر ما يجسّد صورته الجميلة والوهمية، فكم من جائزة رُفعت باسم السّلام بينما ظلّت الحروب مشتعلة، والدّماء تسيل خلف الستائر المخمليّة للمؤتمرات، فيبدو الأمر بالتالي كأنّ العالم مولعٌ بـالسلام بوصفه فكرة شاعرية أكثر من كونه واقعاً صلباً، فالجائزة في بعض تجلّياتها ليست سوى تاج يُوضع على رأس الوهم الجميل، ليبدو العالم أكثر إنسانيّة وهو يواصل تجاهل جوهر ...

ARAB-PSF.COM

المعاناة، وهكذا قد يتحوّل السلام من قيمة تُناضل الشعوب من أجلها إلى مشهد رمزي مزيّن بالكلمات اللامعة والابتسامات الدبلوماسيّة، سلامٌ يُمنح ويُصفّق له، لكنه لا يُعاش....

ومن ثمّ فإنّه لا حديث عن السّلام وصناعة السّلام إنْ لم يكن مرافقاً له حديث عن العدالة من جهة أولى، فالسّلام بلا عدالة هشّ وقابل للانفجار في أيّة لحظة، فالعدالة الاجتماعية، والتوزيع العادل للثروة، وحماية حقوق الإنسان، وضمان الكرامة الإنسانيّة، تعدّ كلّها شروط أساسيّة لأيّ سلام حقيقيّ ومستدام، فحين نرى اليوم صراعات تمزّق مجتمعات بأكملها، نجد في جذورها غالباً ظلماً تاريخياً متضمّناً لفقر، تهميش، حرمان من الحقوق وقمع للحريات...

ومن جهة أخرى، لن يكون للسّلام وجود إنْ لم يكن هناك رفض للسّلام الزائف، فحين تُفرض "تسوية" ظالمة على شعب مستضعف، فإنّ القبول بها باسم السلام هو خيانة للسّلام نفسه، فالصّمت أمام الظلم، والتواطؤ مع القهر، وقبول الاحتلال والاضطهاد باسم "تجنّب الصراع"، كلّ هذا ليس من السّلام بشيء، إنّما هو استسلام يطيل أمد المعاناة، فالسّلام الحقيقيّ يتطلّب شجاعة الوقوف في وجه الظلم، شجاعة قول الحقّ، وشجاعة الدفاع عن المستضعفين، ففي ذلك يقول اللّه تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ (النساء: 148)، فالمظلوم له حقّ الجهر بظلامته، والسكوت عنها ليس من الفضيلة بشيء...

وبعد،

فقد وجب علينا الاعتراف بأنّ السّلام المطلق، السّلام الذي لا تشوبه شائبة، قد يكون فعلياً وهماً جميلاً، ولكنّ هذا لا يعني أنْ نستسلم لليأس أو نقبل بالعنف كقدر محتوم، فالسلام ليس وجهة نصل إليها يوماً فنستريح، بل هو رحلة نخوضها كلّ يوم، فهو الخيار المستمرّ للحوار بدل العنف، وهو درع الإنسانيّة ضدّ الكراهيّة في قلوبنا قبل أنْ تكون في العالم....

فالتحدّي الحقيقيّ ليس في تحقيق مدينة فاضلة من السّلام، إنّما في إدارة الصراعات الحتميّة بطريقة حضارية، فعلينا أنْ نتعلّم كيف نحوّل الصراعات من المواجهات العسكرية المدمّرة إلى قنوات دبلوماسيّة واقتصادية تنافسيّة، وأنْ نبني ..

استقراراً قابلاً للاستمرار، قائماً على توازن القوى والمصالح المشتركة، لا على هيمنة طرف واحد، وأنْ نعمل على تحقيق سلام إيجابيّ يقوم على العدالة والإنصاف، لا مجرّد إسكات لدويّ القنابل والصواريخ..

فالوهم الجميل ضروريّ لكونه يمنحنا الأمل والقوّة لنواصل البناء رغم كلّ شيء، ولكنّه وجب أنْ يتحوّل لعمل، واختيارات واعية، ومواقف شجاعة، وإلى تربية جيل جديد يؤمن بأنّ عالماً أفضل خالٍ من الحروب أمر ممكن، فعلى الرّغم من اختلاف مفهوم "السلام" وفقاً لاختلاف المصالح ما بين دول كبرى ترى في السلام حماية لمصالحها الإستراتيجيّة، ودول نامية ترى فيه تحقيقاً لمبادئ السيادة وعدم التدخّل وإنهاء الاحتلال والعدالة، ومنظمات دوليّة ترى فيه سلاماً شاملاً قائماً على القانون الدولي وحقوق الإنسان، فقد وجب المناداة للسّلام ليكون مزيجاً من المبادئ المثالية والاعتبارات العملية القائمة على المصالح الوطنية، وسعياً لإقامة نظام دوليّ مستقرّ يمكن من خلاله التعاون وحلّ الخلافات بالوسائل السلميّة، وضمان رفاهية وأمن الشعوب...

وها نحن اليوم، في العالم أجمع، بحمد من اللّٰه وفضل ومنّة، نشهد بعد أكثر من 730 يوم من الحرب والصّمود الأسطوري لغزّة العزّة، توقّف الحرب التي عانى فيها أبناء غزة من الإبادة والدمار، فقد أثمر الموقف الدولي الداعم لوقف العدوان على الشعب الفلسطيني، وآتت الإجراءات التي اتّخذها العالم ضدّ إسرائيل أُكلها، حتى باتت دولةً منبوذة على السّاحة الدوليّة بسبب جرائمها...

فاليوم، إذ نشهد بزوغ فجر السّلام، ندرك أنّ السّلام دعوة إلهيّة وغاية إنسانيّة، والطريق إليه، وإنْ كان طويلاً وشاقاً، يستحقّ أنْ نسلكه، لأنّه إنْ لم يسُدّ ستسود الكراهية والعنف....

فلنحلم بالسلام الذي رأيناه اليوم، ولنعمل من أجله، ولنؤمن بإمكانيّته، والأهمّ أنْ نكون واقعيّين في وسائلنا وأدواتنا التي ستكون لبنات في بناء العالم الذي نحلم به....